

لا يبحث بها لكي يعلل بعض ما يقع في عالم الحس فهل يجوز ذلك اي هل يحق لنا ان نفرض وجود موجودات لا تنزك بالحس او تقتصر على ما يدرك بالحس . وهل نقول ما قاله دي بوا ريموند في الكلام عن المادة والقوة وهو ان حقيقتهما لا تدرك او نقول ما قاله هيكل وهو انه ليس في الطبيعة ما لا يمكن ادراكه ذلك وامثاله من المسائل التي تجل بالبحث عن اصل المعارف . وهذا البحث يهد السبل للفلسفة العقلية وما وراء الطبيعيات ويطلع الباحث المدقق على ما يزجي في فروع العلوم من كل رأي فظير . وكثيراً ما نرى العالم الطبيعي يهزأ بالفيلسوف مستعملاً عبارات وادلة لم يعرفها لولا الفلسفة . ومثل الفلسفة وعلماء الطبيعة في ذلك مثل الشيخ الذي حملته السندباد البحري على عاتقه من غير ان يشعر به وتاريخ الفلسفة يدل على انها قد ارتقت ارتقاءً يتباً وما وقع فيها من الخطأ يفيد الباحثين لانه يحذرهم من الوقوع فيه ثانية فان من يعرف السبل الذي لا يوصل الى المطلوب يستفيد من معرفته في اكتشاف السبل الموصل اليه

(ترجمت للمتتطف من مقالة في جريدة العلم العام الاميركية للاستاذ فرنك ثي)

البانيا^(١) او بلاد الارناؤوط

ليس في هذه الايام بلاد تهتد دعائم السلم في اوربا اكثر من البلاد الالبانية وهي قريبة من مراكز العمران يحدها الجبل الاسود شمالاً وبلاد اليونان جنوباً ولها ساحل طويل يتد على البحر الادرياتيكي المسمى عند العرب ببحر البنادقة الفاصل بينها وبين ايطاليا ومع ذلك لا يعرف عنها اكثر مما يعرف عن مجاهل الصين لصعوبة التوصل فيها . فاعدها مدينة اشقودره على بحيرة تسمى بهذا الاسم يوصل اليها بطريق مركبات تبدي من بلدة كطاروفي دماطيا مارة بستينا عاصمة الجبل الاسود الى ان تنتهي عند ريجكا من قرى هذا الجبل فينقل منها الى باخرة تعبر البحيرة الى اشقودره ويلزم لقطع هذه المسافة يومان على الاقل . ويمكن الوصول الى اشقودره من بلدة مدو وهي ثغر الباني على الادرياتيكي وتنقسم بلاد البانيا الى مقاطعات صغيرة يسكنها قبائل من الارناؤوظ . ويتعذر على السائح الدخول اليها لما في ذلك من الاخطار . والبلاد تابعة للدولة العلية وفيها حامية من

(١) معرفة بعض تصرف عن مقالة نشرها في إحدى الجلات الانكليزية سائحان من الانكليز تجولا في بلاد البانيا الداخلية من عهد قريب وطرأ ما رأاه فيها مرأى العين

الجيش العثماني الا ان سلطة الحكومة فيها اسمية لا يعتد الشعب بها وطبيعة البلاد تساعد اهلها على عدم اتباع الاحكام والامثال لما لانها جبال شامخة وعرة المسالك والسكان لا يهابون احدا ولا قيمة عندهم للحياة وهم دائما مدحجورن بالاسلح يحسبون كل غريب بطا ارضهم جاسوسا ارسل ليطلع على مواقع الضعف فيها ويحرمهم الاستقلال واشهر هؤلاء الاقوام قبيلة تدعى الفزنية تسكن سهلا طويلا ضيقا يحيط به سور من الجبال المنيعه اذا دخل ارضها غريب فلا تدعه يخرج سالما . وهذه القبيلة لا تمنع الغريب من دخول ارضها ولكن لا تترساعه على وصوله حتى يجتمع مشايخها ويقرروا قتله ثم يعينوا من ينفذ ذلك . وبلتزم الغريب ان يأخذ جوازاً من رئيس كل قبيلة لكي يتمكن من الجولان في داخلية البلاد الابانية ويعين الرئيس رجلين او ثلاثة ليسيروا معه ويكونوا مسئولون عنه باموالهم وارواحهم اذا اتاه اذى . وعند مبارحته اراضي هذا الرئيس تفعل مثل ذلك مع رئيس القبيلة الثانية التي يجناز ارضها وهذه الطريقة الوحيدة التي يمكن للغريب ان يسبح بها في هذه البلاد ما عدا بلاد الفزنية ومقاطعة اخرى لا يسمح اهلها للغريب في الدخول اليها ايا كان

وببلاد الفزنية واقعة على حدود الجبل الاسود وهي صغيرة لا يزيد عدد سكانها على عشرين الفا الا انه اذا مس احد استقلالها بسوء في امكانها ان تجتمع نحو ثمانية آلاف رجل من الاقرباء السلحين ويتسارع حينئذ الرجال والاولاد والنساء الى حمل السلاح للدفاع عن الاوطان والدود عن الحرية التي يتمتعون بها . ويرسم اهل الجغرافية بلاد الفزنية على الخارطة كأنها جزء من البانيا ولكنها في الحقيقة بلاد يسكنها قوم مستقلون بانفسهم لا يميلون الى احد ويفضلون الموت على تغيير شيء من حالتهم . وهم اكثر الابانيين ميلا الى سفك الدماء غدارون يقضون معظم ايامهم في مناخزة اهالي الجبل الاسود المجاورين لهم ومناوشتهم القتال وهم لا يقبلون غريبا بينهم الا اذا كان جانيا هاربا من وجه العدالة فيعدون جنايته كجواز له . وبين بلادهم والجبل الاسود نخابة كبيرة يخفي بين اشجارها اربعة او خمسة من الاشقياء حتى اذا اقتربوا من حدود الجبل فكوا بين اوقعة سره طالعه بين ابدسهم . وفي وسط هذه الغابة طريق الى الجبل الاسود مشهور بكثرة ما يقع فيه من حوادث القتل واللب وعلى جانبيه كثير من الاحجار المنقوشة نصبت لتدل على الاماكن التي سقط فيها المسافرون الابرياء مقتولين بايدي هؤلاء الاشقياء . على ان هذا الطريق يعد من اهم طرق البلاد لانه الطريق الوحيد الذي يجناز اراضي هذه القبيلة ولكن لا يمكن لمسافران يمر به الا اذا كان مستصعبا

فترًا من الرجال شاكى السلاح وعلى غاية الانتباه والحذر لأنه لا يُعلم من اي جية تطلق الرصاصة التي تصوب اليه على حين غفلة . ولا يتوهمن القارى ان اهالي الجبل الاسود يقاسون هذه الاهدات وهم صاغرون بل كثيراً ما ينزلون هم ايضاً على بلاد الابان ويأخذون بثار من قتل من مواظنيهم . وعوائد هذه القبائل واحوالها غريبة يسر الانسان الاطلاع عليها على ان ضيق المقام يحول دون اشباع الكلام عليها فلذلك نذكر القليل منها

ان لباس قبيلة الفزنية يشبه لباس بقية الابانيين وهو سراويل بيضاء ضيقة مزينة بنقوش جميلة على اطرافها وتطريز اسود عريض ويعلوها قميص ايضاً فرقة ستره صغيرة سوداء نصف اكمام وكثيراً ما يحملون في وسطهم ذخيرة من الرصاص وطبخة وخنجراً ويعلقون بندقية على كتفهم ويلقون على رأسهم قماشاً طويلاً ايضاً ويلفونه حول رقبتهم كالعرب . وفي الصيف يدلون السراويل الضيقة بسراويل واسعة من القطن وهذا ليس الطبقة السفلى على الدوام . وفي بعض المقاطعات الاخرى يختلف الزي قليلاً عن هذا فمنهم من يلف قماشاً ملوناً على رأسه ومنهم من يلبس طربوشاً ايضاً تمييزاً له عن المسلمين الذين يلبسون الطربوش الاحمر . واغلب سكان البانيا يدبنون بدين النصرانية على مذهب كنيسة رومية وهم شديدو التعلق به ويسمى الاتراك الذين اعتنقوا الاسلام من اهل الجبال ارنوؤوطاً . وتساعد الدولة النموية الاكليروس الاباني مساعدة مالية كبيرة حتى تبسط بواسطته نفوذها على البانيا وقد است ايطاليا فيها عدة مدارس لتأيد نفوذها ازاء نفوذ النمسا واهم هذه المدارس ان لم يكن احسنها في اشقودره وعدا ذلك فلا مدارس في البلاد كلها ولا اثر للتعليم فيها حتى ان اللغة الابانية نفسها ليس لها اجرومية لضبط قواعدها . واكثر الاهالي اميون

وقد روى الشان الانكازيان اللذان كتبنا هذه المقالة انهما حضرا قداماً اقيم في الجبال تحت القبة الزرقاء وكان منظر الابانيين عجيباً مدهشاً فانهم لما جاؤوا للصلاة نزعوا عنهم سلاحهم وطلقوا بنادقهم على الاشجار وكانوا يركعون ويسجدون بكل خشوع امام هيكل بسيط نُصب امامهم مع انه كان بينهم نزاع وقاتل وقبيل هذا الاحتفال يومين قتل سيان منهم عمر احداهما ١٥ سنة والآخر ١٦ سنة رجلاً رمية بالرصاص على مسافة ٤٠٠ قدم . وهم اذا ارادوا قتل امرى فلابايون احداً . فيجلبثون خلف صخرة ويطلقون الرصاص عليه واحياناً يجزون رأس القتيل ويأتون به الى منزلهم كعلامة انتصار ليشاهده اقرباؤهم واصحابهم ويعجبوا بيسالتهم ولا يستصعبون ذلك بل يعدونه من اسهل الامور عليهم

ولكل قبيلة رئيس يخضع له ويعيش اعضاؤها سوية كمائلة واحدة لا يتنازعون فيما

ينهم ولكنهم كثيراً ما يتقاتلون مع القبائل المجاورة لهم . ويفصل في المسائل الجزئية شيخ البلد وليس لهم سجون فاذا ارتكب احدهم جريمة كبيرة ارسله الرئيس الى تركيا ليسجن فيها . واذا كانت الجريمة صغيرة حكم على الجاني بالوقوف تحت شجرة او في زريبة البقر مدة تختلف من ساعة الى خمسة عشر يوماً . وهذا العقاب يشابه كثيراً الانتصاف من الاولاد في المدارس وقد يجتهد الحكام الاتراك احياناً بتأييد سلطتهم على هذه القبائل ولكن بلا جدوى كما ترى من الحادثة الآتية . وهي ان رجلاً من الالبان ضبطه رجال الحفظ في احدى المدن لتلوه آخر فارس الى السجن ليعاقب على ما جتته يداؤه فنزلت من اجبال عصابة من قبيلته واخبرت الوالي انه اذا لم يطلق سراحه ويرجعه معها في مدة اربع وعشرين ساعة تهجم القبيلة كلها على البلد وتحرقها فامتثل الوالي وافرج عن رقيقهم . والالبان معنون من الخدمة العسكرية لا تأخذ الدولة جنداً منهم ولكن اذا حدثت حرب يقدمون انفسهم للخدمة متطوعين ومن عوائد اهالي هذه البلاد الاخذ بالثار وهو شائع عندهم شيوعاً كبيراً فاذا قتل رجل واحد من قبيلته او من قبيلة اخرى والتجأ حالاً الى منزل اقرب قريب للقتيل وشرح له واقعة الحال وجب على هذا القريب حماية الجاني ما دام تحت سقف يتيه وعليه ايضاً ان يوصله بسلام الى حدود اراضي القبيلة ولكنه يقول له عند ما يفترق عنه ان حمايته له قد انتهت الآن فيحتمى من بعد ذلك لا قارب المقتول قتل المارب في اي مكان وجدوه حتى ولو بعد مضي سنين ولا ينجو ابنة او حنيدة بل يؤخذ منهم بثار من قتل . في بعض الاحيان يجوز للقاتل ان يدفع دية المقتول وهي تختلف من مئتي جنيه الى الف جنيه حسب منزلة القاتل ولكن الصلح الذي من هذا القبيل لا يخلو من خطر ولو كان كلام الشرف عند الالبان ضماناً على صدقوا واذا قتل رجل آخر من قبيلة مجاورة لقبيلته فلا يقتل اقارب القاتل واصحابه عن القاتل نفسه بل يقتلون حالاً اي شخص يلقونه من عائلته او قبيلته ولكن اذا اهاب القاتل المقتول فلا ينجو حينئذ من القصاص مهما فعل واذا حرب فيؤخذ الثار من اقرب اقاربه وقد يحدث سراراً ان القاتل لا يهرب مع علمه انه سوف يقتل لكي لا يقع حيف على اقاربه

روى كاتبنا هذه المقالة خبيراً من هذا القبيل شاهداً باعينهما فالا

كنا نجول يوماً في احدى المقاطعات الالبانية فطرق آذاننا بقتة صوت اطلاق البنادق ثم رأينا الفلاحين الذين كانوا يعملون في حقولهم قد حملوا بنادقهم التي لا تفارقهم ابداً وجعلوا يركضون نحو غابة مجاورة وهم يحشون بنادقهم باروداً وبعد قليل ابصرنا رجلاً يسرع الينا ويستنجد بنا ولم يكن الا كليل البصر حتى احاطت بنا شرذمة من الالبان وهم مدحجون بالاسلحة يصيحون

ويصخبون فما زلنا نلاظفهم ونلاينهم حتى خلصنا الرجل منهم وكان شاباً بهي الظلمة وحكايته
كما اخبرنا هي ان امرأة متزوجة احبته فلم يعبا بها فتهددته بكسر منزلها امامه اذا لم يعجبها وذلك
يعد عند النساء الابانيات اكبر شيء تهدد به المرأة الرجل الذي يرفض حبها او يهينها ومعناه
انها سوف تقتله يدها او تسلط رجلاً آخر عليه . فلما لم يردّها من اجابتها اختار اهون الشرين
وحملها الى منزله ومن ذلك اليوم صارت حياته تحت الخطر لان زوجها من اهل اليسار ولما رآها
هرت مع عشيقها اعلن انه يعطي مبلغاً وافراً من المال لمن يأتيه برأسه فكثرت طلي هذا
المسكين والابانيون لا يستكبرون قتل رجل بري فكيف يكون حالهم اذا علموا ان من وراء
عملهم مغمماً فيينا كان يشتغل في حقله اطلق عليه رجل بندقيته فقابله بالمثل فرماه جريحاً
وهرب البنا ومن بعد ما قصص علينا حكايته أخذنا العجب لما رأينا راجعاً الى منزله ولم يطلب
منا الاً بندقية جديدة وباروداً حتى يمكنه على الاقل ان يدافع عن نفسه لان بندقيته كانت
قديمة ولم يكن معه الاً قليل من النخيرة

ولما سألتناه ان يبقى معنا اجابنا كيف يمكن ان احرب واخوتي يعيشون هنا ويملكون
حقولاً وارضياً فاذا هرب يقتلونهم لا محالة فتعجبنا من شجاعته وشهامته ولا بد ان يكون قد
لحق حنفة الآن . وامثال هذا كثيرين في هذه البلاد لا يعملون في اي ساعة بلقون حنقهم
وعوضاً عن ان يهربوا ويمرضوا اثارهم للخطر تراهم يلبثون في منازلهم ينتظرون الموت بقلوب
واجلة وعيون شاحبة

ومن غريب تلك العوائد ان النساء على انحطاط منزلتهن عند الابانيين تراهم يحترمونهن
كثيراً في مسألة النار وقتل المرأة بعد عندهم جناية لا تغتفر وعاراً على القبيلة يلزم ازالته بكل
الوسائل حتى ان المرأة اذا وقفت الى جانب زوجها فلا يمكن لاحد ان يطلق عليه بندقيته
خوفاً من ان يصيبها بسره

واشقوده عاصمة البلاد الابانية تحوي على نحو اربعين الف نسمة جلهم من المسلمين
وبها حامية كبيرة من الجند الشاهاني وهي مقسومة الى قسمين قسم يسكنه الافرنج وقناصل
الدول ويدعى حي القناصل وقسم يسكنه الوطنيون ويدعى حي الاسواق ولا يسمح للابان
مكان الجبال دخول المدينة الاً اذا كانوا عزلاً من السلاح فترى الذين يؤمونها منهم يوم
السوق يسرون في الازقة وليس عليهم سوى حزام فيه الخراطوش

ويصادف الغريب الذي يقدم هذه المدينة صعوبات جمة من المال الاتراك الذين يؤشرون
له على ورق جوازوه ما لم يكن قادماً من جهة الجبل الاسود بطريق البحيرة وفي عزمه مبارحة

البلدة حالاً . وكذلك ينش عيال الجمارك القادم بكل شدة ولكن يمكن تخفيف ذلك ببعض درهماً يعطيها المسافر للعامل وتمنع الدولة ادخال الاسلحة الى هذه البلاد ومع ذلك ترى كل واحد من الاليان يحمل السلاح وهذا من الغرائب والقسم الذي يسكنه الاجانب نظيف مرتب منظم خلافاً لحي الاسواق فان طرقه معوجه وتكثر فيه الاقدار كما هو الحال في اغلب المدن الشرقية ويتم في اشقودره اسقف البانيا الكاثوليكي وفيها كنيسة كاثدرائية كبيرة ومستنهي المسئلة البلقانية يوماً الى تزع الاستقلال النوعي الذي تمنع به البانيا الآت ولكن الدولة التي تكون هذه البلاد نصيبها تصادف صعوبات في اخضاعها أكثر مما لاقى النمسا في اخضاع البوسنة والمهرسك . ونفذ النمسا الآن عظيم بواسطة الكنيسة ولهذا السبب قد عينت لها في اشقودره قنصلاً جنرالاً وقنصلاً ووكيل قنصل توفيق كلداني

عروسة النيل

الفصل السادس والعشرون

كان مضجع اوربون تلك الليلة مضجع العائق الواله يطارد فيه الوجد الكرى ويهزم الحنين الراحة فظل يتقلب على مثل شوك القتاد حتى انشق الفجر فنهض وارتمى ثيابه وركب جواده وسار يطلب النسطاط ليودع صالحاً اخا هاشم التاجر نصف مال باولين عملاً بما اتفقوا عليه وكان الطباقي بين المدينتين مدينة الفراعنة وعاصمة العرب على اتمه فبدت هذه بمظاهر النشاط والشباب وانزوت تلك وعليها امارات الضعف والانحطاط والشيخوخة حتى خيل لاوربون ان منف جنة مخطئة في العدوة الواحدة والنسطاط شاب في مقتبل العمر وشرح الشباب في العدوة الاخرى . واكبر ما رأى في وجوه العرب من سباه التجابة والنشاط فأتى التفت ابصر عيوناً يبعث منها الذكاء وحدة الدهن ووجوهاً ارتسمت فيها البسالة والاقدام وانوقاً شماء ابي اصحابها الا الانتصار على المصاعب وتذليل العقبات فسار في الشوارع المزدهمة باخلاق حتى وصل الى حانوت صالح قنرجل ودخل يتبعه نيلس خازنة وفيها هاهنا ابصر عبادة بين المارة فحياه هذا تحية الصديق فرداً اوربون التحية باحسن منها لكن انقباضاً من الرجل عاوده وخطر بياله ما قاله عمرو . وعاد عبادة فرماً به ثانية وثالثة فادرك اوربون انه لامرئ ما يفعل ذلك لكنه لم يكذب نيجز ما جاء لاجله حتى نسي عبادة ولما قضى غرضه رجع الى منف وسارتوا الى البيت فرأى